هان كانغ تتصدى للموت بـ«الكتاب الأبيض»

انتزاع الحياة من الماضي في رواية تجريبية كورية

تعتبر هـان كانغ من أبرز الكاتبات في كوريا الجنوبية، ورغم تجربتها الأدبية المميزة في الكتابة الشـعرية والقصصيـة والروائيـة، لـم تنل الشـهرة التي تسـتحقها إلا بعد تتويـج روايتها "النباتيـة" بجائزة «المـان بوكر» الدوليّـة، وكانت أوّل كورية تترشـح للجائـزة. وأخيرا صدرت روايتها الأحـدث "الكتاب الأبيض" وقد وصلـت إلى القائمة الطويلة للمان البوكر عام 2018.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

"الكتـاب الأبيض" لهـان كانغ تعتبر روايـة تجريبية في المقـام الأوّل، فهي دون أحداث أو تفاصيل تقريبًا، كما أنها تعتمد على التأمُّلات الذاتيّة لمعنى الفقد والحزن، وانعكاسـات الأشـياء خاصة اللـون الأبيض علـى ذاتهـا، واختبار للـروح فـي هشاشـتها وصلابتهـا. تأتـي الرواية فـي ثلاثة أقسـام، الأول بعنـوان (أنـا) والثاني (هـي) والثالث (كل البيـاض)، عبـر مراوحـة بيـن ذاتهـا المنسـحقة وذات أختها الغائبة والمستعادة.

تجريبيـة النص قائمـة على المزج بين تشـكيلات الصـورة وتأثيرها على العين والمتن الروائي، فضمّنت الكاتبة النص الكثير من التشـكيلات البصرية التي تنسجم مع طبيعة المحكي خاصة ما هو متعلّق باللـون الأبيض، في نوع من التضفير بين الكتابي والبصري. كما يغلب على الفصـول القصر والاختزال، حتى أن مفردة تأمّـلات تكاد تكون أكثر تعبيرًا عـن طبيعة النـص، لما تحويه من رمزيـة تارة وشـعرية تـارة ثانية، إلـى درجة أن بعض المقاطع تكاد تكون شعرًا خالصًا.

الكتابة تحوُّل

العالم الروائي في الرواية الجديدة، والصادرة بترجمة محمد نجيب عن دار التنوير 2019، ينحو بعيدًا عن تعقيدات السياسـة، والواقـع الاجتماعـي، وإن كانا حاضريْـن كخلفية للأحـداث، كما أنّه يتّسـم بكونه عالمًـا لصيقًا بالذات إلـى درجة التماهي والشـفافية، بل من المبالغـة إذا قلنـا إن روايـة "الكتـاب الأبيـض" قصـة أو حكاية، فـلا توجد حكاية أو قصة تسـردها الرواية، وإنما مجـرد نثـار أشـبه بنـدف الثلـج عن سـيرتها الذاتية وسيرة الغائبة أختها، وعن فلسفتها الخاصة في تأمّل الأشياء والحياة، عبر انعكاسـات اللون الأبيض الذي تسـتحضره فـي كافـة ترداداته: القِمـاط/ ثـوب طفـل وليـد/ ملـح / جلِيـد/ قمر / شـجرة المغنوليا / أرز/ مـوج البحـر/ طائر أبيـض/ الضحكة البيضاء/ ورقة بيضاء/ شـعر أبيض/ كفن، منديل.

> ذات الروائية تتقاطع مع أختها ومع شخصيات أخرى تستحضرها الكاتبة، لتعكس وقع المأساة التي عاشتها بالفقد

تنتقـل الرّاويَـة إلـى مدينـة "على الجانـب الآخـر" لـم تُحددهـا الكاتبة، وإن كانـت كل المؤشـرات تشـير إلـى أنها وارسـو، أو حتى تذكر أسباب هذا الهـروب إليها. تعيش فيها وتسـتأجر شقة بعقد مؤقت، تطفو في هذه المدينة الذكريـات القديمـة، بـل وتجبرها على "النظر في داخلها". رويدًا رويدًا ينكشف سـبب البُعد، والاختفاء في هذا المكان. ومـن ثـمّ تأتـي الكتابة هنـا بوصفها لحظة فارقة لمغـادرة زمن معاش تَهرب منهـا إلى زمن لم تعشـه، تسـتحضره مـن المخيلـة ومـن خطابـات الآخرين وتصوراتهم، والأدهـى أنها تصوغ (أو تنتزع) منه حياة كاملة من الرماد لكائن لـم يكن موجودًا، وإن كان غيابه أسـهم في وجوده. ومن ثم هي أشبه بكتابة ردّ الجميل له.

إعادة ترميم الذات

تتوازى ذات الراوية مع ذات المدينة المزيـج بين الجديـد وأطـلال القديم، التي أباد النازيون في عام 1945 خمسـة وتسـعين بالمئـة مـن سـكانها، لأنهم وقفوا ضدهـم، وطردوا الجنود الألمان، وشـكّلوا حكومة لمدة شـهر، قررت أن تحكم المدينة قبل أن يُقرِّر هتلر إبادتها تمامًا. مدينة حديثة فلا يوجد شيء يزيد عمره على سـبعين سـنة، أعـادت بناء نفسـها وإن كانت بعض مبانيها زائفة، حيث تحايلت الأسرة المالكة التي كانت تقضـي عطلة الصيف علـى إعادة بناء مبان جديـدة وفقا للصور الفوتوغرافية والرسـومات القديمة. فالمدينة وروحها كلاهما يسعيان لأن يُبعثا من جديد، لكن الماضي يطفو، بذكريات عن الأسرة وعن الطفلة التي كانت قربانًا لها.

تسـتدعي صـورة المـوت أشـكال المـوت المـوازي والذي تكـرر مع الأم كثيرًا، فأول طفل أنجبته الأم -كما حكى لها الأب- مات بعد سـاعتين من ولادته. كما كان هذا الموت هو أول اختبار لفهم طبيعة الحزن. الغريب أنه عندما أجابت تركت الحديـث عنها وتحدثت عن كلبها الأبيـض الذي نفِق وهي في الخامسـة من عمرهـا. وأيضًا مـوت صديقها في الجامعة، وعمها الذي مات مبكرًا بسبب إدمانه الكحول.

بل تأخذنا فـي نثر تفاصيل صغيرة عن عائلتهـا التي كانت تعيش في منزل معزول في الريف بالقرب من المدرسـة التي يعمـل فيها الأب. بشـكل أو بآخر يحضر السـياق الاجتماعي الذي نشأت فيه، حيث لا يوجـد في القرية إلا هاتف وحيـد "في محل صغير بجـوار محطة الحافـلات" وتدبيـر الأم لحاجيـات صغيرتهـا القادمـة التـي جـاءت قبل موعدها، فصنعت ثوبًا للطفلة من قماش أبيض، حاكتـه بإبرتها. ثم رحلة الأب ذي الخامسـة والعشـرين ربيعًا إلى الجبل كـي يدفن الطفلـة التي ولدت وماتت بالأمس.

روائية تستعيد حياة الأخت الميتة (لوحة للفنانة نور بهجت)

تتقاطـع ذات الروائيـة وأختها مع شـخصيات أخرى تستحضرها الكاتبة، لتعكس وقع المأساة التي عاشـتها بالفقد. فالأخـت الغائبة التي تستحضرها تتوازى مع ذلك الشـخص الذي ولد في المدينة، عـاش يزعـم طـوال حياتـه أن روح أخيه الأكبـر الذي مات في السادسـة من عمره فـي غيتو يهودي، يسمع صوته من وقت لآخر دون أن يراه، أو يشعر بوجوده. الغريب أن هذا الرجل بدأ يـدرس لغة هذه البلـد، تعرف على مخاوف أخيه، الذي كان يصرخ من رعب ما شاهد. تعكس هذا العالم على ذاتها، وتتصـور لو أن أختها التي لم تعش إلا لسـاعتين جاءت، ستشعر بالضياع لأن الطفلة لم تسـنح لها الفرصة كي تتعلم اللغة.

بل تجنح إلى القول إن هذه الطفلة لو تمكنت من أن تعيش بعد تلك السـاعات القليلة الأولى، لمـا كانت هي موجودة، فتديـن بوجودها وحياتها لأختها، ومن ثم تأتي الاستعادة كنوع من الوفاء لها. وبالمثـل تتقاطـع ذاتها مـع ذات ابنة الكاتـب بارك تـاي ون "سـول - يونغ" بمعنى زهرة الثلـج. فاليوم الذي ولدت فيه كان صعقيًا أكثر من كونه ثلجيًا، لذا اختار سول "ثلج" كمقطع من اسمها.

فعل الكتابة

تسـتعيد الروائيـة حيـاة الأخـت الغائبـة والمفقـودة بفعـل المـوت، وتمنحها عمرًا أكبر من عمرها الحقيقي. تأخذهـا فـي ذات الأماكـن التـي هي موجـودة فيها، وتتركهـا تتعامل كأنها كائـن موجـود. بـل تتصور لهـا حياة كاملة وقد عاشت لتشرب الحليب

الـذي اعتصرتـه الأم فخرجت قطرة أشـبه بالماء مائلة للأصفـر، قبـل أن يندفع حليب أبيض أملـس في تنفسـها البطيء وفي ارتجاف شـفتيها، وقد فطمت وصـارت تأكل عصيدة الأرز، بـل وهـي تكبـر يومًـا بعـد يـوم حتى تصبح امرأة، "تجتاز كل أزمة تواجهها".

بـل الأغرب أنهـا تتخيّلها تأتي إلى هـذه المدينـة بديلاً عنها، فتمشـي في شوارعها. تمنحها حياة كاملة "وأشياء بيضاء"، وهي تمشـي وتتأمّل واجهات المحـال، تتابـع الحركـة المتكـرِّرة للأمواج.

كمـا تعيرها عينيها لترى بها وترى وقع مشـاهداتها بتأثير عيـون أختها. وبعينها سـترى المـكان الأكثـر عمقًا وسـطوعًا داخل زهرة ملفوفـة بيضاء وارتجافـة نصف قمر يظهـر في وضح النهار.

تؤكـد الكاتبـة الكورية هـان كانغ بهذه الروايـة الفاتنة، جدارتها الأدبية، وقدرتها على خلق عوالم من الجمال في عدد محدود من الصفحات، وبلغة أقرب إلى الشـعر، وأيضًا تدفعنا إلى البحث عن دواخلنا لاستعادة ذواتنا أو انتزاع الحيـاة من الرمـاد. كما تؤكّـد المعنى الخـلّاق لفعـل الكتابة ذاتـه، فالكتابة صـارت لديهـا رديفًـا للحيـاة. وفعل الكتابـة كأنه بعث وخلـق جديد، وقدرة على السّمو فوق الدمار الذي يحيط بنا، أو يسببه لنا أفراد.

الآخر الذي يحلّ بيننا

حسن الوزاني
كاتب مغربي

في اللحظة التي كان فيها عدد من الرحالة العرب يغامرون بالذهاب إلى مناطق ما وراء جغرافيا العالم العربي والإسلامي بحثا عن التعرف على ثقافة الآخر الغريب وعلى عاداته، كان آخرون يحطون في الديار العربية والإسلامية، بشكل فردي أو في إطار بعثات مؤسساتية، يسبقهم في ذلك اختلاف نواياهم ومصادرهم المعرفية.

وإذا كانت الرحلات العربية قد استطاعت تحقيق سبقها التاريخي، كما هو حال الرحلات الأولى التي تمت في عهد الرسول في اتجاه الروم، فإن الرحلات الغربية استطاعت الوصول إلى عدد أكبر من المناطق في وقت وجيز.

ولذلك لم يكن غريبا أن تطأ خطى الرحالة كل الجغرافيات التي يمكن أن تحمل مداخل للتعرف على هذا العالم، بما فيها المدن والبوادي والمواقع التاريخية والمناطق الصحراوية البعيدة، بما فيها الربع الخالي، المعروف بجفافه الشديد. وكان قد عبره الرحالة البريطاني بيرترام توماس، المعروف بكتابه الشهير "أرابيا فليكس" (بلاد العرب السعيدة)، الذي يدون فيه للصحراء ولثقافتها.

وكانت بلاد العرب السعيدة، كناية عن الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، محطة لعدد هام من الرحلات. ولعل من أهمها رحلة الإيطالي لودفيكو دي فارتيما، التي تعود إلى بدايات القرن السادس عشر، ورحلة الفرنسي جون بليرن، التي تمت في نهاية القرن السابق، وشملت المنطقة السابقة ووصلت إلى فلسطين ومصر. وذلك بالإضافة إلى رحلة غابرييل بريمون، التي تعود إلى أواسط القرن السابع عشر، وإن كان نص الرحلة سيظل منسيا ليرى النور في سبعينات القرن الماضي.

والأكيد أن الرحلات الغربية لن تكتفي بالمنطقة. إذ ستصل خطى الرحالة إلى أقصى العالم العربي، وبالضبط إلى المغرب، حيث يعود أول نص فرنسي يدون لرحلة إلى المغرب، حسب الباحث رولان لوبيل، إلى بدايات القرن السادس عشر. وهو نص "رحلات إلى أفريقيا، آسيا، ومناطق الهند الشرقية والغربية" للفرنسي جان موكي، الذي زار المغرب مرتين. الأولى في إطار رحلة على متن باخرة برتغالية موجهة لتموين مستعمرة مازاغان، قبل أن يكرس رحلته الثانية للوصول إلى مناطق أخرى.

وسيغري المغرب، لأكثر من سبب، عددا كبيرا من الرحالة، الذين وقّعوا عددا كبيرا من نصوص الرحلات والتي تشكل مصدرا أساسيا لصورة المغرب لدى الآخر.

وفوق ذلك، لن تظل الرحلات محصورة على الرجال فقط. إذ سيكون المغرب موئلا لرحلات عابرة لعدد من الرّحالات القادمات من جغرافيا مختلفة. ومن بينهن، حسب الباحثة لطيفة بنجلون العروي في كتابها "الرّحالات الغربيات إلى المغرب"، الكاتبة البريطانية أميليا بيريير، صاحبة كتاب "شتاء في المغرب"، ومواطنتها الكاتبة إيزابيل سافوري، التي كانت مراسلة لجريدة نيويورك تايمز، والتي دونت رحلتها إلى المغرب من خلال نصها "رحلة ومغامرات امرأة بريطانية بالمغرب". وكانت إيزابيل سافوري قد قضت ستة أشهر بالبلد، مفضلة قطع المساحات الطويلة فوق حمار!

في زحمة توالي صفوف الرحالة، ومنهم الأطباء والرهبان والمخبرون والدبلوماسيون والمستكشفون والأدباء والفنانون والضباط ورجال الأعمال والصحافيون وغيرهم، يبدو طبيعيا أن تختل الصورة التي يقدمها هؤلاء عن موئل رحلاتهم. وفي كثير من الأحيان، يبدو الشرق في نصوص الرحالة والمستشرقين كما لو أنه فصل من "ألف وليلة" أو كعلبة عجائب. وقد يفسر ذلك ما ذهب إليه خبير كبير عارف بخبايا الاستشراق الغربي، وهو إدوارد سعيد، حين أقر بأنه لا يوجد ما قد يسمى استشراقا موضوعيا أو إيجابيا، باعتبار أن كل ما يُفعل وكل ما يقال عن أنه موضوعي له ارتباط بالمصلحة فقط.

بالطبع، لا ينفي ذلك الصورة المشرقة التي قدمها بعض الرحالة والمستشرقين عن العالم العربي أو الإسلامي.

ويمكن في هذا السياق، استحضار حالة كارل بروكلمان، الذي كرس حياته للبحث في حفريات الثقافة العربية ليمنحها الشيء الكثير الذي قد يضاهي ما منحه إياها أبناؤها. ولم يكن الرجل مستشرقا فقط، وعابرا لثقافتنا، بل جعل من هذه الثقافة مرآته التي يتمعن فيها انعكاسات سيرته الحافلة بالاكتشافات وبالمغامرة وبالمثابرة، التي تجعل منه مقيما دائما داخل بيت هذه الثقافة الفسيح.

> رحالة غربيون كثيرون جاؤوا إلى العالم العربي ودونوا رحلاتهم إليه في كتب تقدم رؤاهم للثقافة العربية

وكان بروكلمان يملك قدرة مذهلة على العمل، وعلى البحث في أكثر من مجال، سواء في الثقافة العربية والإسلامية، أو في الساميات، أو في اللغة التركية، أو في غيرها. واستطاع أن يخلّف عددا ضخما من الأعمال، من بينها، على سبيل المثال، "تاريخ الشعوب الإسلامية". ولعل أكثر كتب بروكلمان حظا هو "تاريخ الأدب العربي"، الذي لا يمكن لأي دارس لتاريخ تراثنا الأدبي أن يستغني عن قراءته، ولا تكاد تخلو أي مكتبة تهتم بالثقافة العربية من نسخة منه.

لم يشفع كل هذا الجهد لبروكلمان بعض أخطائه، التي يبدو كثير منها طبيعيا، اعتبارا لظروف البحث خلال المرحلة، خصوصا بالنسبة إلى باحث بعيد عن أرصدة المخطوطات العربية. فخصّه عبدالله الحبشي بكتاب سماه "تصحيح أخطاء بروكلمان في تاريخ الأدب العربي"، كما كرس غيثان علي جريس مؤلفا في تصيد "افتراءاته" على السيرة النبوية.

يبقى أن تقديم صورة عادلة عن الثقافة العربية لدى الآخر هو مسؤولية العرب أساسا. ويبدو أننا ندمن على الحوار بيننا دون أن نذهب إلى الآخر. وقد نعجز عن احتساب عدد الندوات واللقاءات التي تُنظم داخل بلدان العالم العربي، حول قضايا الإرهاب والتطرف، كأننا نحاول أن نقنع أنفسنا بعدالة قضايانا، في حين ننسى المواطن الأجنبي الذي تلتهمه، خلال كل ساعات اليوم، آلات الإعلام الكبرى، وننسى المستشرق، الذي أمضى حياته في تعلم لغة يحقد عليها كثير من أهلها.

رحالة قدموا صورا عن العرب